ابراهيم بن المهدى : حياته السياسية

إنما هذه شخصية موهوبة عبقت فى قصور خلفاء الدولة العباسية : هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وانتشر شذاها الذكى فى مجالس الأنس والسمر والطرب ، تشدو بأعذب صوت ، وتغرد بأشجى نغم .

وقد حفلت حياة هـذه الشخصية العبقرية بالطموح والإقدام ، وتفردت بالشجاعة والمغامرة ، واتسمت بتعـدد المواهب وخصبها ، وامتازت بتسنم ذروة الفن والفصاحة . فكانت زينة المحافل ، ونديمة المجالس ، وريحانة النفوس الصادية لارتشاف مناهل الفن والجمال ، وبهجة الأرواح الظمأى إلى همسات الوجد والغرام .

أنجب العصر العباسى الأول هـذه الشخصية الفذة فى مناحى حياتها الصاخبة ، الغارقة فى أحضان الهوى ، العابثة فى مجالس الخلفاء والقيان ، الساخرة من أحـداث الزمان ، الضاحكة من الهموم والأحزان . فكانت ألذ شخصية وأغربها ، وأدعاها إلى الدرس والبحث والتحليل ؛ تلك شخصية إبراهيم بن المهدى اللحن الحائر الرائع .

أمه « شكلة » مولدة . كان أبوها من أصحاب المازيار ، يدعى شاه افرند ، قتـل مع المازيار ، وسبيت ابنته « شكلة » وأرسلت إلى المنصور ، فوهبها لـ « محياة » أم ولده ، فربتها عندها . ثم بعثت بها بعد ذلك إلى الطائف ، فترعرعت هناك وتفصحت . فلما شبّت ، أعيدت إلى « محياة » . أصلها من طبرستان ، وقيل إنها ابنة ملك طبرستان .

وذات يوم أبصرها المهدى عندها ، فأعجب بها ، فطلبها منها ، فمنحته إياها . وما لبثت أن ولدت منه إبراهيم عام ١٦٢ هـ . وهو ينسب إليها ويدعى إبراهيم ابن شكلة . وكان مثلها حالك السواد . وقد لقب بالتنّين لعظم جثته وضخامتها .

تولى إبراهيم بن المهدى : فى الثامنة عشرة من عمره، إمرة جند دمشق سنتين كان خلالهما مثال الحاكم الصالح .

على أن الرشيد عزله لهفوة بدرت منه ، وهو الفتى الحاكم ، وعين مكانه سليمان بن المنصور بن المهدى . غير أن الفتنة نشبت فى أثناء حكم سليمان ، ولم يطعه أحد من الشعب .

وغضب الرشيد على إبراهيم ، وحبسه مائة يوم ، ولم يسمح له بدخول قصره ، كما حظر على جعفر بن يحيى أن يذكر اسمه أمامه سنة

بيد أن الأيام كانت كفيلة بعودة الصفاء والمودة بين هارون الرشيد وإبراهيم ، فكأن الرشيد أيقن أنه من العدل أن يفكر فى جفائه لأخيه ، فخيره أن يختار مدينة يوليه عليها ، فإذا بإبراهيم يحن إلى دمشق ومغانيها .

عقد لإبراهيم على إمرة دمشق ثانية ، ورحل إليها عام ١٨٦ معززاً . وبعد زمن أقاله الرشيد متذرعاً بجبنه ، وولّى مكانه العباس بن محمد بن ابراهيم الإمام .

ولكن مالبث الرشيد أن ألغى ولاية العباس بن محمد ، وأعاد إبراهيم إلى ولايته ، وأثنى على حكمته ، وأجازه بثلاثين ألف دينار .

وبقى إبراهيم فى ولايته الثالثة على دمشق أربع سنوات ، قفل بعدها راجعاً إلى بغداد ، وهو فى ريِّق الشباب ، وقد اكتسب من الحكم خبرة ودراية انتفع بهما فى حياته المفعمة بالحوادث الجسام .

لما استقر الأمر للمأمون ، وولى الخلافة عام ١٩٨ ، بعد ما استعرت الحرب بينه وبين أخيه الأمين ، وردت فى الثانى من رمضان سنة ٢٠١ رسالة على عيسى ابن محمد بن أبى خالد ، من الحسن بن سهل ينبئه فيها بأن المأمون بحث عمن يليق أن يكون ولى عهده ، فلم يجد فى بنى العباس وبنى على أفضل وأروع وأعلم من على بن موسى بن جعفر بن محمد ، وقد دعاه الرضى ، وأمره أن يخلع الثياب السود شعار بنى العباس ، وأن يرتدى الثياب الخضر شعار بنى على ، وأن يأمر أصحابه والجند والقواد وبنى هاشم وأهل بغداد بأن يبايعوه ، وأن يتخذوا الخضرة فى ملبسهم وأعلامهم .

فقبل البعض ذلك ، ورفض البعض الآخر أن يخرج الأمر من ولد العباس ،

واحتدم الجدال بين أهل بغداد أياماً ؛ واضطرمت الفتنة ، واستعرت سورة الغضب بين الشعب ، فناوءوه وقاوموه .

اجتمع زعماء الثورة وبحثوا فى قضية المأمون ، فأنكروا عليه صنيعه ، فإذا بهم يجمعون على خلعه ، وتنصيب منصور بن المهدى خليفة ، ودعوه المرتضى ، وسلموا عليه بالخلافة ، ولكنه أبى ذلك . فعمدوا إلى أخيه إبراهيم ابن المهدى ، فبايعوه بالخلافة ، ولقبوه « المبارك المنير » وقلدوا ابن أخيه إسحاق بن موسى بن الهادى ولاية العهد . وكان ذلك فى ٢٥ ذى الحجة عام ٢٠١ .

لما انتزع إبراهيم بن المهدى الخلافة من المأمون ، أوفد إليه المأمون الحسن ابن سهل فى جيش ، فثبت له إبراهيم وقاتله فهزمه .

ودارت رحى الحرب بين إبراهيم وأهل بغداد ، وبين أهل الكوفة والسواد ، فتغلب إبراهيم عليهم وعسكر بالمدائن .

واستعرت الحرب سجالاً بين جند المأمون وجند إبراهيم ، وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وانقسم أهل بغداد إلى حزبين .

ومازال إبراهيم بن المهدى فى بغداد يدعى « أمير المؤمنين » ويخطب باسمه فى بغداد والسواد والكوفة ؛ إلى أن كان على بن موسى الرضى ولى عهد المأمون يأكل عنباً ، إذا به يموت لوفرة ما تناوله منه . فنزل موته على المأمون نزول الصاعقة ، وانتابه جزع عظيم .

وفى موت ولى عهده الذى احتدمت الحرب من أجله ، ونبذ السواد ، ولبس الخضرة بسببه ، أدرك المأمون أن لا سبيل له إلا أن يسلك سياسة الحكمة والمرونة . فإذا به يكتب بوفاته إلى الحسن بن سهل ، وإلى بنى العباس وأهل بغداد والموالى ، وأنهم إنما نقموا عليه لجعله ولىّ عهده . أما وقد زال السبب ، فإنه يرغب إليهم أن يدخلوا فى طاعته ، ولكنهم جابهوه بالرفض وأنهم لا يقبلون عن ابراهيم بن المهدى بديلا .

وبقيت الحرب مضطرمة زمناً بين المأمون وابراهيم بن المهدى . وما زال ابراهيم يخمد الفتن ، ويقف فى وجه خصومه ، ويدافع عن خلافته ، حتى انتشرت الفوضى . وقد نظم عيسى بن محمد بن أبى خالد مؤامرة على تسليم ابراهيم

إلى خصومه . وكان يتظاهر بالطاعة لإبراهيم والإخلاص له . ولما نمى هذا الخبر إلى ابراهيم كتم الأمر فى نفسه .

وانضم بعض أنصار ابراهيم من القادة والجند إلى حميد الطوسى ، وسلموه المدائن ، كما هزم جند حميد جند ابراهيم وطاردوهم .

ولما رأى خاصة أهل بغداد انتصار حميد ، انضم إليه الفضل بن الربيع وعلى ابن ريطة . ثم بدأ العقد ينفرط من حول ابراهيم ، حيث تحول عنه الهاشميون والقواد إلى حميد تباعاً .

وهنا أدرك ابراهيم من انصراف أنصاره من حوله ، أنه خسر المعركة ، وأنه لا شك خاسر الخلافة . وإذا ببضعة من القواد يفاوضون على بن هشام على تسليم ابراهيم بن المهدى إليه . فلما علم ابراهيم بخيانتهم وخيانة قومه وأصحابه ، وأنهم قرروا تسليمه ، ولم يبق له نصير أو صديق ، دأب على ملاطفتهم فى حكمة ولين .

وفى عيد الأضحى عام ٢٠٣ سار موكب ابراهيم بن المهدى إلى الجامع ، مرتدياً زى الخلافة ، تحف به حاشيته بأبهة وعظمة ، وصلى بالناس صلاة العيد . وهو يشاهد معسكر على بن هشام . ثم عاد إلى قصر الرصافة ، واجتمع فيه بمؤيديه وأنصاره ، حيث درس وإياهم الموقف الراهن ، فوجد أنه فقد الخلافة ، ولا مناص له من الفرار من وجه المأمون ، كى لا يبطش به ، لأن أقل عقاب له كان القتل .

انسل ابراهيم بن المهدى من قصر الخلافة إلى داره ، حيث اختفى فى ليلة الأربعاء فى ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ .

وحاصر المطلب وابن الساجور وأصحابهما دار ابراهيم ، وأبلغا ذلك إلى حميد الطوسى وعلى بن هشام ؛ فقدما ودخلا دار ابراهيم ، فوجداها خالية منه . فأعلما المأمون بذلك .

وكانت خلافة ابراهيم بن المهدى سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، قضاها فى إخماد الفتن والثورات ، ومحاربة المأمون فى سبيل الاحتفاظ بالخلافة وتنازع البقاء .

دخل المأمون بغداد فى ١٦ صفر عام ٢٠٤ وكان مرتدياً هو وأصحابه الخضرة ،

كما كانت أعلامهم خضراً ، وثياب بنى هاشم وقواده وجنده وأهل بغداد خضراً .

وبعد مرور ثمانية أيام اتفق معه بنو العباس على نبذ الخضرة ، والعودة إلى ارتداء السواد .

وكان من الأسباب التى ساعدت المأمون على إعادة أهل بغداد إلى طاعته ، أنه أمر بإعفائهم من ألفى ألف درهم من خراجها . وهكذا استمالهم إليه وملك قلوبهم مرة أخرى ، مما دل على مرونته السياسية ، وحنكته الإدارية .

ومالبث المأمون أن استأنف إدارة شؤون الدولة بما عرف عنه من الحكمة والحلم .

غير أن العلويين عمدوا إلى المشاغبة عليه ، بعد أن ضحى بما ضحى فى سبيلهم . فلما رأى منهم ذلك أمرهم بهجر الخضرة وارتداء السواد ، ومنعهم من الدخول عليه .

إن ما تحلى به المأمون من سماحة الخلق ، ورحابة الصدر ، والحلم القصى ، وحب التسامح ، وميله إلى التساهل ، وكرهه للانتقام ، وشغفه بالعفو ، أصبح مضرب المثل . فقد عفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، ثم أعقبه بعفوه عن عيسى وزير إبراهيم بن المهدى ، وكان هو والفضل بن الربيع من زعماء الانقلاب عليه .

وفى ربيع الآخر سنة ٢١٠ اعتقل إبراهيم بن المهدى ، وهو متنكر بزى امرأة .

وروى أبو المحاسن بن تغرى بردى يصف عفو المأمون عن عمه ابراهيم بقوله :

« . . . وله فى هروبه واختفائه وكيفية الظفر به أمور وحكايات مهولة ؛ منها انه لما وقف بين يدى المأمون ، شاور فى قتله أصحابه . فالكل أشاروا بالقتل ، غير أنهم اختلفوا فى القتلة ؛ فالتفت المأمون إلى أحمد بن خالد وشاوره ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إن قتلته فلك نظير ، وإن عفوت عنه ، فلك نظير . فأنشد المأمون :

فلئن عفوتُ لأعفُوَنْ جللاً ولئن سطوتُ لأُوهِنَنْ عظمى !

فكشف ابراهيم بن المهدى رأسه وقال : اللّه أكبر ! عفا عنى أمير المؤمنين ؟ فقال المأمون : ياغلمان ، حلّوا عن عمى وغيّروا من حالته ، وجيئونى به . . . [1] »

وفى مثول ابراهيم بن المهدى بين يدى المأمون ، وفى الحوار الذى دار بينهما ،

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٤١

بلاغة وطرافة ومتعة تشف عن فصاحة ابراهيم وتوبته، وعن حلم المأمون وكرمه.

حدث ابن عساكر قال « . . . ولما طال عليه الاختفاء ضجر ، فكتب إلى المأمون : «ولىّ الثأر محكَّم، والعدل أقرب إلى التقوى . ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرجاء ، فمن عادية الدهر على نفسه . وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل ذى عفو ، كما جعل كل ذى ذنب دونه . فإن عفا فبفضله ، وإن عاقب فبحقه » . فوقع المأمون على الكتاب : « القدرة تذهب الحفيظة ، وكفى بالندم إنابة وعفو الله أوسع من كل شىء » . ولما دخل على المأمون قال :

إن أكن مذنباً فحظى أخطأ ت ، فدع عنك كثرة التأنيب
قل كما قال يوسف لبنى يعقوب لما أتوه : لا تثريب

فقال له المأمون : لا تثريبَ ، وقال له أيضاً لما أخذه : ذنبى أعظم من أن يحيط به عذر ، وعفوك أعظم من أن يتعاظمه ذنب . فقال له المأمون : حسبك ! فإن قتلناك فللّه ، وإن عفونا فللّه . . .[1] » « بل أعفو يا إبراهيم ، فكبر إبراهيم وخرّ ساجداً[2] » .

إن عفو المأمون عن عمه ابراهيم بن المهدى ، كان خيراً ومكرمة وذكراً عاطراً مدى الدهر . وقد ضرب به مثلاً عالياً فى الحلم والتساهل والتسامح ورحابة الصدر ونبل الخلق .

ومن أبلغ ما دار بين المأمون وابراهيم بن المهدى ما حدّث الفضل بن طيفور . « . . وقال المأمون لابراهيم حين صفح عنه : لو لم يكن فى حق أبوتك حق الصفح عن جرمك ، لبلغتَ ما أملت بتنصلك فى لطف توصلك . وكان ابراهيم قال له : إنه إن بلغ جرمى استحلال دمى ، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغان عفوه . ولى بعدهما شفعة الإقرار بالذنب ، وحق الأبوة بعد الأب . . . قال المأمون : . . . لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو ما حمدونى عليه ، ولا أنابوا من ذنوبهم . فقال ابراهيم إما متمثلا وإما مخترعاً :

أمير المؤمنين عفوت حتى كأن الناسَ ليس لهم ذنوب[3]

وأضاف ابن العميد قوله : « ... فقال له المأمون : إنى شاورت فى قتلك ،

---

(١) التاريخ الكبير ج ٢ ص ٢٧٢ و٢٧٣ . (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ١٧٦

(٣) كتاب بغداد ج ٦ ص ١٩٥ .

فأشاروا بقتلك ؛ إلا أنى وجدتُ قدرك فوق ذنبك ، فكرهتُ القتل[1] »

وعاد إبراهيم إلى مجلس المأمون عزيزاً مكرماً ، فنادمه المأمون ولاطفه . ثم طلب إليه أن يغنى ؛ فاعتذر بأنه نذر لله عند خلاصه نبذ الغناء . فألح عليه ، وأمر بوضع العود فى حجره فغنى :

هـذا مقام مشرد خربت منازله ودوره
نمّت عليـه عُداتُه كذبا ، فعاقبه أميره

ثم أمر المأمون بإعادة ما حجزه له من الأموال والضياع والعقار والدور والدواب ، كما أعاد مرتبته ، وأجازه بعشرة آلاف دينار فوراً ، وانصرف مكرماً على خيل المأمون .

وهكذا أنقذ بيان ابراهيم بن المهدى حياته من القتل ، ويرهن ذلك على كرم المأمون وسماحة طبعـه ، وتقديره للأدب وأربابه . فلولا بلاغة ابراهيم وسرعة خاطره ، وذلاقة لسانه ، وقوة حجتـه ، ومضاء عزيمته ، لبطش به المأمون ، وجعله عبرة لسواه .

منير الحسامى

---

(١) تاريخ المسلمين ص ١٣٦